﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣﴾ [الإسراء: 73]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الامتنان على سيّد السّعداء بعصمته من كيد الأشقياء

لمّا عدّد تعالى نِعَمَه على بني آدم، ثم ذَكَر حالَهم في الآخرة من إيتاء الكتاب باليمين لأهل السّعادة، ومن عمى أهل الشّقاوة؛ أَتْبَعَ ذلك بما يَهمّ به الأشقياءُ في الدّنيا من المكر والخداع والتّلبيس على سيّدِ أهل السّعادة المقطوعِ له بالعصمة ﷺ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَادُواْ﴾: أصلُ (كيد) يَدُلُّ على مُعالَجَةٍ لِشَيْءٍ بِشِدَّةٍ، قالَ أهلُ اللُّغَةِ: الكَيْدُ: المُعالَجَةُ، قالوا: وكُلُّ شَيْءٍ تُعالِجُهُ فأَنْتَ تَكيدُهُ[2]، هذا هو الأَصْلُ في البابِ[3]، والفعل (كاد) موضوع عند العرب لمقاربة الفعل، كِدْتُ أَفْعَلُ مَعْناهُ عِنْدَهم: قارَبْتُ الفِعْلَ ولَم أَفعل، وما كِدْتُ أَفعَلُ مَعْناهُ: فَعَلْتُ بَعْدَ إِبْطاء[4]، وعليه؛ فالمُرادُ بالكيد في الآية: فِعلٌ يدُلُّ على قُرْبِ حدوثِ الخبرِ؛ أي: (همّوا وقاربوا)[5].

2) ﴿لَيَفۡتِنُونَكَ﴾: أَصْلُ الفِتْنَةِ من الفَتْنِ؛ وهو الإحْراقُ[6]، يُقالُ: فَتَنْتُ الذَّهَبَ؛ أيْ: أَحْرَقْتَهُ بالنّارِ لِتَمييزِ الجَيِّدِ من الرَّديءِ[7]، والفَتْنُ والفُتونُ: مُعامَلَةٌ يَلْحَقُ منها ضُرٌّ واضْطِرابُ النَّفْسِ في أَنْواعٍ من المُعامَلَةِ يَعْسُرُ دَفْعُها، من تَغَلُّبٍ على القوَّةِ وعلى الفِكْرِ[8]، والفِتْنَةُ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 89.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كيد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (كيد).
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والفيوميّ، المصباح المنير: (كيد).
(5) الواحديّ، التفسير الوسيط: 3/ 119، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 14/ 8688.
(6) الخليل، العين: (فتن).
(7) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (فتن).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 171.

الابْتِلاءُ والامتِحانُ والاخْتِبارُ، يُقالُ: فَتَنْتُهُ، أَفْتِنُهُ، فَتْنًا وفُتوناً: إذا امتَحَنْتَهُ[1]، والمقصودُ بالفَتْنِ في الآية: اضْطِرابُ الحالِ الشَّديدِ الَّذي يَظْهَرُ بِهِ مِقْدارُ صَبْرِ وثَباتِ مَنْ يَحِلُّ به، والمُرادُ به: الصَّرفُ؛ أي: (كادوا يَصْرِفونَكَ)[2].

3) ﴿لِتَفْتَرِيَ﴾: أَصْلُ (فرى) مِنَ الفَرْيِ، وهو القَطْعُ والشَّقُّ، يُقالُ: أَفْرَى الذِّئْبُ بَطْنَ الشَّاةِ يُفْري فَرْيًا؛ أي: شَقَّهُ، ومِنْهُ الفِراءُ وهو الجِلْدُ؛ لِأَنَّهُ يُقْطَعُ[3]، ويَأْتي الفَرْيُ بِمَعْنَى الصُّنْعِ والاخْتِلاقِ[4]، وقيلَ الافْتِراءُ: الكَذِبُ العَظيمُ[5]، وقيلَ: الكَذِبُ المتَعَلِّقُ بالأَعْراضِ، ويَأْتي الافْتِراءُ بِمَعْنَى البُهْتانِ والظُّلْمِ[6]، والمقصود بالافْتِراءِ في الآية: الاخْتِلاقُ وإيجادُ خَبَرٍ لا مُخْبِرَ لَهُ[7].

4) ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ﴾: أصل (أخذ) حَوْزُ الشَّيْءِ وجَبْيُهُ وجَمعُهُ، قالَ الخَليلُ: هو خِلافُ العَطاءِ، وهو التَّناوُلُ[8]، والاتِّخاذ: جَعْلُ شَيْءٍ لِفائِدَةِ الجاعِلِ؛ لِأَنَّ المُتَّخِذَ يَأْخُذُ الشَّيْءَ الَّذي يَصْطَفيهِ[9]، والاتِّخاذُ أيضًا: الاقْتِناءُ، يُقال: أَخَذَ الشَّيْءَ، يأْخُذُهُ، أَخْذًا؛ أي: اقْتَناهُ، ويُطلَقُ على الاكْتِسابِ، يُقال: اتَّخَذَ فُلانٌ مالاً، يَتَّخِذُهُ، اتِّخاذًا: إذا كَسَبَهُ[10]، والمقصود بالاتِّخاذِ في الآية: جَعْلُ الشَّخْصِ الشَّيْءَ لِنَفْسِهِ[11].

5) ﴿خَلِيلًا﴾: أَصْلُ الخُلَّةِ مِنَ الخَلَلِ، وهو الفُرْجَةُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، وهي الصَّداقَةُ والمَحَبَّةُ[12]، والخَليل: الصّاحِبُ المُلازِمُ الَّذي لا يَخْفَى عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ أُمورِ صاحِبِهِ، والخَليلُ أيضًا: الفَقيرُ، وسُمّيَتِ المَحَبَّةُ خُلَّةً؛ لِأَنَّها تَخَلَّلَتِ القَلْبَ فَصارَتْ في باطِنِهِ، والتَّخَلُّلُ: النَّفاذُ[13]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 259.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المُفردات: (فرى).
(4) ابن سِيدَه، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فرى).
(5) السجستانيّ، غريب القرآن، ص: 103.
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فرى).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 173.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 226.
(10) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللغة، وابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (أخذ)، والمناوي، التوقيف، ص: 37.
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 163.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلل).
(13) ابن عباد، المحيط في اللغة: (خلل)، والحميدي، تفسير غريب ما في الصحيحين، ص: 478.

ومِنْهُ الخَلَّةُ: الفَقْرُ؛ لِأَنَّهُ فُرْجَةٌ في حالِهِ[1]، والمُرادُ بالخليل في الآية: الصَّفيُّ والصّاحِبُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الثّبات على الحق يُبطل تلبيس أرباب الضّلال ومكرهم

الآيةُ إخبارٌ عن جانبٍ من المسالك الخبيثة الَّتي سلكها المشركون مع النَّبي ﷺ لزحزحته عن التَّمسُّك بدعوته، وكيف أنّ الله تعالى قد عصمه من كيدهم، فقال سبحانه: وإنَّ المشركين قاربوا بخداعهم أنْ يوقعوك في الفتنة بصرفك عمّا أوحيناه إليك من الأحكام، لتتقوَّل علينا غير الَّذي أوحيناه إليك ممّا اقترح عليك، ولو فعَلْتَ يا مُحَمَّدُ ﷺ ما دعاك إليه قَومُك من مخالفةِ القُرآنِ، واتِّباعِ أهوائِهم؛ لجَعَلوك حَبيبًا ووليًّا وصَفيًّا لهم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في ﴿وَإِن﴾ ودلالتها:

حكاية فنّ آخر من أفانين عمى الكفّار

صُدِّرَ قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ بحرف (الواو) الدّالّة على العطف والاقتران، وذلك لأنّ قوله تعالى في هذه الآية حكايةُ فَنٍّ من أفانين ضلال الكفّار وعَماهُم في الدنيا، فالجملةُ عطفٌ على جملة ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾، وهو انتقال من وصف حالهم وإبطال مقالهم في تكذيب النبيّ ﷺ إلى ذِكْرِ حالٍ آخر من حال معارضتهم وإعراضهم، وهي حالُ طمعِهم في أن يَستنزِلوا النبيَّ ﷺ لأن يقولَ قولًا فيه حُسْنُ ذِكْرٍ لآلهتهم ليتنازلوا إلى مصالحته وموافقته إذا وافقهم في بعض ما سألوه، وهذا على أحد الأقوال في سبب نزول الآية[3].

---

(1) الجوهري، الصّحاح: (خلل).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 15، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 300، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 464.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 171.

معنى (إنْ) ودلالتها:

تأكيد مقاربة الكفّار لفتنة الرسول ﷺ

أوثِر في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ استعمالُ (إنْ)، ويَحتمِل في اللّغة أن تكون (إنْ) نافيةً مشبَّهةً بـ(ليس)، أو أن تكون مُخفَّفة من (إنّ) المُشدّدة المُستعملة للتّوكيد، والضّابط في التّفريق بينهما هو وجودُ اللّام الفارقة، وهي موجودة في هذه الآية، فاللّام في ﴿لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ هي اللّام الفارِقةُ بين (إنْ) المُخفَّفة من الثّقيلة وبين (إنْ) النّافية، وعليه تكون (إنْ) من قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ مُخفَّفةً من (إنّ) المشدّدة، واسمُها ضميرُ شأنٍ محذوفٌ[1]، والمقصودُ من استعمالها تأكيدُ مقاربةِ الكفّار لفتنة النبيّ ﷺ لصرفه عن بعض ما أوحي إليه من القرآن[2].

دلالة استعمال ﴿كَادُواْ﴾ ماضيًا:

حكاية الوقائع السّابقة بالزّمن الماضي

استُعمِلَ فعلُ المقاربة ﴿كَادُواْ﴾ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، والنكتةُ في ذلك الإشعارُ بوقوع حادثة سابقة قارَبَ الكفّارُ فيها فتنةَ الرسول ﷺ، وذلك لأنّ الإخبار عن الشيء بصيغة الماضي يقتضي كونَ المُخبَر عنه مُتقدِّمًا على ذلك الإخبار[3].

توجيه المتشابه اللفظي:

سعيُ الكفّار في أذى النبيّ ﷺ

تتشابه آيتا سورة الإسراء: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾، و﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ﴾ [الإسراء: 76] في ذكر موقفَيْن قارَبَ فيهما الكفّارُ من إيذاء النبيّ ﷺ، وتختلفان في نوع الأذى؛ فالآية الأولى ذَكرتْ مقاربةَ الكفّار لفَتْنِ النبيّ ﷺ عن بعض ما أوحى الله إليه من أحكام الشريعة، فيتنازل عنها لأجلهم، وذكرتِ الآيةُ الثانية مقاربةَ الكفّار

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 173.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 377.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.

أن يُخرِجوا النبيَّ ﷺ من مكّة المكرّمة، وقد عصمَ اللّه ﷻ نبيَّه من الوقوع في كيدهم وأيَّدَه بحفظه.

معنى اللّام في ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ ودلالتها:

أثرُ اللّام الفارقة في الفرق بين النّفي والتأكيد

دخل في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ حرفُ (اللّام) على خبر (إنْ) المخفّفة من الثقيلة فرقًا بينها وبين (إن النافية)، ودلالة هذا الحرف مهمّة في تحديد سياق الكلام من النفي أو ضدّه من التّأكيد، فدَلَّ وجودُها في هذه الآية على تأكيد مقاربة الكفّار لفتنةِ النبيّ ﷺ لصرفِهِ عن بعض ما أوحي إليه من القرآن.

بلاغة الفعل المضارع ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾:

تجدُّدُ فَتْنِ الكفّار للنبيّ الكريم ﷺ

عُبِّر بالفعل المضارع الدّالّ على التَّجدُّدِ ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾؛ للإشعارِ بسعي الكُفّار الحثيثِ الدّائم لمحاولة صرفِ النبيّ ﷺ عن الذي أوحي إليه من القرآن، وقد تكرّر ذلك منهم لاستمالَتِه لولا عصمةُ اللّه لنبيّه الكريم.

أثر تعدية الفعل بحرف الجرّ ﴿عَنِ﴾:

الدلالة بكلمة على معنى كلمتين

تعدّي الفعل ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ بالحرف ﴿عَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ خلافُ الأصل؛ لأنّ الفعل (فتن) يتعدّى بنفسه دون حرف، فدَلَّ ذلك على التّضمين، وهو أن تَحمل كلمةٌ معنى كلمة أخرى، فتُعامَلُ معاملةَ تلك الكلمة الأخرى نحويًّا، وفائدة التّضمين أن يدلّ بكلمة واحدة على معنى كلمتين[1]، فلمّا عُدِّيَ الفعلُ ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ في هذه الآية بـ ﴿عَنِ﴾ دلّ على تضمينه معنى فعلٍ كان الفَتْن لأجله، وهو ما فيه من معنى (يصرفونك)[2]، فضلًا عن دلالة حرف الجرّ ﴿عَنِ﴾ على البُعد، فجمع ببلاغة التَّضمين بين الفتن والاختبار، وبين الصرف والإبعاد.

(1) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 687.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 171.

سرُّ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِىٓ﴾:

أثـر الصّلـة في تعليل الحكم

النّكتة البلاغية في إيثار وضع الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ موضع الاسم الظّاهر في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أنّه يسمح بوصفه بجملة الصّلة، فدَلَّ قولُه: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ على نبوّة النَّبيّ ﷺ وتلقّيه القرآنَ من عند ربّه ﷻ، فهذه الآية مسوقةٌ مساقَ المَنِّ على النَّبيّ بعصمة الله إيّاه من الخطأ في الاجتهاد[1]، لأنّه مُسدَّد مُؤيَّد بالوحي، وفي ذلك تثبيت للنَّبيّ ﷺ وللمؤمنين وتأييسٌ للمشركين بأنّ النبيّ ﷺ محفوظٌ معصومٌ من الزَّلل.

أثر استعمال الفعل الماضي ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾:

حفظ الوحي من التغيير والتّبديل

عُبِّر بالفعل ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ بصيغة الماضي للدّلالة على محاولة الكفّار صرفَ النبيّ ﷺ عن الّذي سَبق أن أوحي إليه، وتحقّق لديه أنّه من ربّه ﷻ.

دلالة إسناد الفعل ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾:

وحـيُ العظيمِ محـفـوظٌ من التّبديل

أُسْنِد في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ الفعلُ ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ إلى ضمير (نا) للدّلالة على عظمة الموحي ﷻ وعلوّ قَدْرِه، وفي ذلك تثبيتٌ للنبيّ ﷺ وتأييسٌ للمشركين بأنّ وحْيَ العظيم محفوظٌ من التّبديل كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النّمل: 6].

معنى حرف الجرّ (إلى):

بـلـوغ الـوحـي للنبيّ ﷺ

عُدّيَ الفعل ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ بحرف الجرّ (إلى) الدّالّ على الوصول والانتهاء، للتّعبير عن بلوغِ الوحي للنبيّ ﷺ وانْتهائِهِ إليه انتهاءَ تَمَكُّنٍ واستقرارٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 172.

معنى اللّام في ﴿لِتَفْتَرِيَ﴾ ودلالتها:

طمعُ المشركين في تغيير الوحي حسبَ أهوائهم

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ دالّةٌ على التّعليل، والمعنى أنّهم يفعلون ذلك إضمارًا منهم وطمعًا في أن يفتري الرّسول ﷺ على الله غير ما أوحي إليه، وهذا طمعٌ من المشركين في أن يستدرجوا النبيّ ﷺ من سؤال إلى آخر[1]، لاستمالته وتنازله.

دلالةُ الفعلِ المضارعِ في الآية:

محاولةُ فتنِ النّبيّ ﷺ حالًا واستقبالًا

عُبّرَ بالفعل ﴿لِتَفْتَرِيَ﴾ مضارعًا في قوله تعالى: ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ للدلالة على الاستقبال، فقد حاولوا صرفَ النَّبيّ ﷺ عن الّذي أوحي إليه من القرآن من أجل أن يوافقهم حالًا ومستقبلًا في بعض أهوائهم.

دلالة ﴿لِتَفْتَرِيَ﴾ بين الحقيقة والكناية:

أثر أسباب النزول في تحديد المقصود

اختلف العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ اختلافًا كبيرًا تَبَعًا لاختلافهم في سبب نزولها؛ فقد قال بعضهم إنّها نزلت في ثقيفٍ، وقيل: نَزلتْ في قريش ... إلى غير ذلك من الأقوال في سبب نزولها ممّا يتضمَّن بعضُها قَدْحًا في عصمة الرسّول ﷺ، فمَنْ أخذ بهذه الآثار جعل قوله تعالى: ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ على ظاهره؛ أيْ: لتتقوَّل علينا غيرَ الذي أوحينا إليك مما اقترحَتْه ثقيفٌ أو قريشٌ حسبما نُقِل[2].

المناهضون لهذا الرأي

وبعض العلماء رأى أنّ هذه الآثار تَقدحُ في عصمة النَّبيّ، فجعل قوله تعالى: ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ كنايةً عن طمع المشركين في أن يفتري الرسول غير ما أوحي إليك، وليس في الكلام ما يقتضي أن النَّبي ﷺ هَمَّ بذلك كما فهمه بعض المفسرين، إذ لام التعليل لا تقتضي أكثر من غرض فاعل الفعل المعلل، ولا تقتضي غرض المفعول ولا علمه[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 173.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 188.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 173.

معنى حرف الجرّ (على):

دقـة البيـان القـرآني في اختيـار حـروف المعاني

عُدّي الفعل (افترى) في قوله تعالى: ﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ﴾ بحرف الاستعلاء (على) للدّلالة على الاستعلاء والزّيادة، فالافتراء زيادة أخبار كاذبة على أصل الوحي، فضلًا عمّا يدلّ عليه حرف (على) من المضادّة والمُناوأَةِ المُتحقِّقَيْنِ بالتسلّط.

دلالة (نا) في ﴿عَلَيۡنَا﴾:

الافـتراءُ على العظيمِ عظيمٌ

اتّصل في قوله تعالى: ﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ﴾ حرفُ الجرّ (على) بضمير (نا) للدّلالة على عظمة الله ﷻ وعلوّ قدْرِه، وفيه أيضًا إدخالُ المهابةِ في قلوب العباد، فالافتراء على العظيم عظيم.

دلالة تقديم الجارّ والمجرور في الآية:

الافتراء على الله ﷻ خصوصًا أمر عظيم

تقدّم في قوله تعالى: ﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ﴾ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيۡنَا﴾ لنكتة بلاغية وهي الاهتمامُ؛ فالافتراء على الله ﷻ أمر عظيم ليس كأي افتراء آخر على غيره، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥﴾ [الحاقة: 44 - 45].

معنى الواو في ﴿وَإِذٗا﴾ ودلالتها:

سعـي الكـفّار لاستمالة النبيّ ﷺ إلى جانبهم

أوثِرَ العطفُ بحرف (الواو) الدّالِّ على الجمع والاقتران في قوله تعالى: ﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾؛ لأنّ جملة: ﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ عَطْفَ النّتيجةِ على السبب؛ بمعنى: لو اتبعتَ أهواءَهم لكنتَ لهم وليًّا ولخرجتَ من ولايتي[1].

معنى حرف (إِذًا):

ترتيـب الجـزاء على الشّرط

استُعمل في قوله تعالى: ﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ حرف (إذًا) وهو دالّ على الجزاء، والنّون التي بآخرها نونُ كلمة وليست تنوينَ تمكينٍ، فتكون جزاءً لفعل ﴿لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ بما معه من المُتعلِّقات مُقحَمًا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 188.

بين المتعاطفيْن، ولتصير واو العطف مع (إذًا) مفيدةً معنى فاء التّفريع، بمعنى اتخاذِ الكفّارِ النَّبيَّ ﷺ خليلًا مفرَّعٌ ومسبَّبٌ عن تَرْكِ ما أوحي إليه من ربّه[1].

معنى اللّام في ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ﴾ ودلالتها:

دلالة اللّام على القَسَم المُقدَّر

اتّصل في قوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ حرف (اللّام) بالفعل (اتَّخَذوكَ)، وهذه اللّام هي اللّام الموطِّئة للقَسَم، وذلك لأنّ الكلام على تقدير الشّرط: وهو لو صرفوك عن الذي أوحينا إليك لاتَّخَذوك خليلًا[2].

دلالة الفعل الماضي ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ﴾:

الشّرط يُفيد الاستقبال وإن كان فعلُه ماضيًا

في قوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ اختار النَّظْمُ الحكيم استعمالَ فعلِ ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ﴾ ماضيًا في جملة شرطيَّة، وقد ذهب النُّحاة إلى أنّ الشَّرط يُفيد الاستقبال وإن كان فعله ماضيًا، فإنّ أدوات الشّرط تقلبُ الماضي إلى الاستقبال، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: 191]، وقوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: 144]، ولا يُفيد الشّرطُ المُضيَّ، بل كل ما ورد من ذلك مُؤَوَّل[3]، فيكون المقصود أنّ الكفّار سيتخذون النبيَّ ﷺ خليلًا إذا تحقّق شرط ذلك من اتّباع أهوائهم.

بلاغة أسلوب الشرط المُقدَّر في الآية:

تحقق الخلّة بشرط موافقة الأهواء

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أسلوبَ شرط مُقدَّر، تقديره: لو صرفوك عن الذي أوحينا إليك لاتّخذوك خليلًا، والنّكتة من التّعبير بالجملة الشّرطيّة أن يتوقّف وقوع الجواب والجزاء على وقوع فعل الشَّرط، فإذا وقع الأول وقع الثّاني.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 173.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 173.
(3) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 63.

إيثار لفظ ﴿خَلِيلًا﴾:

ولايـة الكفّار سببٌ لانقطاع ولاية الرَّحمن

ذهب الجمهور إلى أنَّ لفظَ ﴿خَلِيلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ هو بمعنى صديقًا؛ أيْ: لو فعلتَ لَيَتَّخِذنَّكَ الكفّار صديقًا لهم، وكان المُراد ليكونَنَّ بينك وبينهم صداقة وهم أعداء الله تعالى، فمخالتُهم تقتضي الانقطاعَ عن ولايته ﷻ[1]، وقيل: الخليل هذا من الخَلَّةِ بمعنى الحاجة؛ أيْ: لاتَّخَذوكَ فقيرًا محتاجًا إليهم[2]، والأوّل أشهر.

ولعلّ سببَ الخلاف هو بالنظر إلى أصل اشتقاق الخليل، فقيل: من الخُلّة بضم الخاء، وهي إمّا من الخِلال بكسر الخاء فإنها مودَّةٌ تتخلَّل النفسَ وتُخالِطُها مخالطةً معنويَّةً، فالخليلُ مَن بلغتْ مودَّتُه هذه المرتبةَ، وإمّا من الخَلل كما قيل على معنى أنَّ كلًّا من الخليلَيْنِ يُصلِح خللَ الآخر، وإمّا من الخَلّة بفتح الخاء، وهي إمّا بمعنى الخَصْلة والخُلُق؛ لأنّ الخليلَيْن يتوافقان في الخصال والأخلاق، وقد جاء في حديث أبي هريرة: أنّ النّبيّ ﷺ قال: "الرَّجلُ على دين خليلِه، فلينظرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ"[3]، أو بمعنى الفقر والحاجّة؛ لأنّ كلًّا منهما محتاجٌ إلى الآخر غيرُ مُستغنٍ عنه، أو بمعنى الطريق في الرَّمل لأنَّهما يتوافقان على طريقة[4].

دلالة التنكير في ﴿خَلِيلًا﴾:

اقتضاء الإبهام التّفخيم والتّعظيم

جاء لفظ ﴿خَلِيلًا﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾، ويُستفاد من تنكيرِه وإبهامِه التفخيمُ والتّعظيمُ، بمعنى أنّ المشركين سيتخذونك خليلًا مُقرَّبًا مفخَّمَ القَدْر لو نجحوا في صرفك عن وحي الله إليك.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 173، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 123.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 300.
(3) أخرجه التّرمذي في جامعه برقم: (2378)، وأحمد في المسند برقم (8028).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 3/ 148.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفَتْنُ والصَّرْفُ:

دلالة الفتن على الاختبار، ودلالة الصّرف على التغيير

يَختلف لفظا (الفَتْن) و(الصَّرْف) في المعنى الدّلالي لكلّ منهما، فلفظُ ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ مأخوذٌ من الفَتْنِ، وهو إدخالُ الذهبِ النّارَ لتظهرَ جودتُه من رداءته، ثمّ أُطْلِق مجازًا على الامتحان بالمشاقّ والشّدائد ليتميَّزَ الصادق من الكاذب.

وأمّا لفظُ (يصرفونك) فهو من الصَّرْف، وهو ردُّ الشَّيء من حالة إلى حالة، أو إبدالُه بغيره، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: 152]، وقوله تعالى: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ [الفرقان: 19]، أي: لا يَقْدِرون أن يَصرِفوا عن أنفسهم العذابَ، أو أن يصرفوا أنفسَهم عن النار، ولمّا كان المقصود امتحانَه ﷺ واختبارَه بالمشاقّ والشّدائد؛ اختير التعبير بـ ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾.

الخليل والصّاحب والصَّديق:

الخُلّة أعلى مراتب القُرب والمَوَدَّة

تتقارب هذه الألفاظ في الدّلالة على معنى القُرب والمُصافاة، وتختلف فيما بينها بدرجة القرب وفي أصل الاشتقاق، وبيان ذلك أنّ الخليل مشتقٌّ من الخُلَّةِ؛ وهي المودّةُ والمحبّةُ التي تخلَّلتِ القلبَ فصارت خِلالَه؛ أيْ: في باطنِه.

والصاحب مُشتقٌّ من الصُّحْبة وهي المصاحبةُ في شيء والمعاشرةُ، يُقال صَحِبه وصاحَبَه؛ أي: عاشَرَه، والصاحب المُعاشِر، وأصلُه في العربية الحفظُ، ومنه يُقال: صَحِبَك اللّه وسِرْ مُصاحَبًا؛ أيْ: محفوظًا، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنبياء: 43]؛ أيْ: يُحفظون.

أمّا الصّديقُ فمشتقٌّ من الصَّداقةِ وهي مصدر الصَّديق، واشتقاقُه أنه صَدَقَه المَوَدَّة والنَّصيحةَ، والصَّديقُ: المُصادِقُ لك، والجمع صُدَقاء وصُدّقانٌ وأَصْدِقاء.

وقد دلَّتْ نصوصُ الوحي على أنّ الخليلَ أرفعُ هذه المراتب وأعمقُ دلالةً، ويدلّ لذلك ما في الحديث: "لو كنتُ متَّخِذًا خليلًا لاتَّخذتُ أبا بكر خليلاً، ولكنّه أخي وصاحبي، وقدِ اتَّخَذَ اللّهُ ﷻ صاحِبَكم خليلاً"[1]، ولمّا كانت الخُلّة والمودّة والمحبّة أعلى درجة من الصحبة والصداقة؛ كانت مناسبةً لتكون كِفاءً لافترائه على الله تعالى، حاشاه من ذلك صلوات ربّي عليه!.

(1) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (2383).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 28 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-25-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 28 : المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-25-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9844230 بتاريخ 2024/11/05م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»